غاية الحياة (١)

ايتها السيدات

موضوعنا اليوم « غاية الحياة » ولا اعرف كلمة خطيرة كهذه واكثر تفلتاً من حدود التعريف . إنّ لفظة « الحياة » في معناها التام تشمل الكون بأسره مما يُرى وما لا يُرى. وهي ذلك التيار الخفيّ النافذ في كل شيء ، المحيط بكل كائن ، وقد حوى من الاقتدار والجبروت ما ألقى في روعنا انهُ من روح الله . كأننا بحسب الحياة نسمات نور وإنعاش منطلقة من صدر تلك القوة الكبرى التي نسبح جميعاً في بحار جودها ونعمها « الله »

فاذا شمل معنى الحياة جميع الموجودات فأنّى لنا تعيين غايتها ؟ من ذا الذي يجرأ على تعيين غاية الفلك في دورته ، والنجوم في سيرها ، والمذنبات في تكوّنها ، والشموس في تشعشها واحتراقها ، والنيازك في تساقطها على الارض حجاراً سوداء ؟ من ذا الذي استشف من البحار غاية المدّ والجزر ، ومن القمر غاية الاكتمال والانتقاص ، ومن النوع البشري غاية مدنيّاته وأديانه وأنظمته وكل ما يتقلبُ عليه من الاطوار ؟ كيف نتحرّى غاية الربيع بحلوله بعد الشتاء ، فيتبعهُ الصيف المتلظي الذي لا يلبث ان يزول امام الخريف الحزين ؟ وما غاية الغصن في تمايله وتجرّده وإيراقه ، وغاية البذور في النموّ والانتاج والذبول ؟ نحن نعرف بعض الاسباب الطبيعية في الخليقة وما يترتبُ عليها من النتائج . ولكن لماذا تعمل تلك الاسباب ، وما غاية هذه النتائج ، وإلى أين يقودنا هذا الوجود وهذا الفناء ؟ لغزٌ رائع لا يحلهُ الانسان مهما ارتقى علماً وفضلاً وإخلاصاً

والانسان الذي هو جزء من هذا الوجود غير المدرك ، اكثر ما يستعملُ كلمة « حياة » ليعني كمية ايامه على الارض ومجموع اعماله وكمية ايام كائنات أحاطت به وقد امتاز عنها جميعاً بما أوتي من إدراك وإرادة وحرية . فالجماد مثلاً لا يتحرك إلاّ مرغماً بفعل العناصر كالاعاصير والرياح تقتلع الصخور ،

---

(١) محاضرة القتها الآنسة النابغة مري زيادة (مي) في الجامعة المصرية في ٢٩ ابريل اجابة لطلب جمعية « فتاة مصر الفتاة »

والامطار تنحتها وتفتتها . او بعامل آليّ كالديناميت يدمّر الآكام ويصعق الراسيات . والنبات ، وان تحرك مع النسيم ونشر شذاه في الهواء وكان له إحساسه الخاص كبعض النباتات التي تنكمش اذا ما لُمست ، الا ان اصوله تظل اسيرة ارض تغذيها . والحيوان ينتقل من مكان الى مكان بدافع الرغبة وبايعاز الادراك الذي لديه منه كمية ما . ولكنّ للانسان وحده قوة التمييز والمقارنة والاستنتاج والابداع في اتم انواعها الممكنة . له وحده حرية الانتقال من جهة الى جهة ، والتفكير فيما شاء ، وتنفيذ ما اراد . له وحده ان يتصرف بالموجودات التي يعقلها ويعالجها ويستخدمها لحاجته وهي تعنو له صاغرة لانها لا تعقله وتبقى دونه مهارة ومقاومة . وان جمحت يوماً وفتكت به ساعة غضب عنجهي ، فتلك طوارىء عاديات كالصواعق والفيضان والطوفان والاوبئة التي لا تدوم غير وقت ما . ولسرعان ما يهب لمقاتلتها واختراع ما يكفه منها ويقيه شرها . ولئن خضعت الموجودات الى النظام الكليّ الذي يسيّرها قهراً فعاشت عيشتها الصخرية الخشبية البهيمية وادّت وظيفتها المعينة جاهلة صاغرة ، فان الانسان — وفي ذلك ميزته وفخره — لا يكتفي بتلك العيشة الابتدائية العنصرية ولا يعيشها مرغماً بل سعيداً ، مدبراً ، مختاراً . وهو فوق ذلك يخلق لنفسه غايات قومية وسياسية وفكرية وقلبية جمة ، تتسابق الى تحقيق غاية قصوى يوجه نحوها مجهوداته ، ويجمع اعماله في شبه قناة حيوية تنتهي الى تلك الغاية البعيدة ، تلك الغاية المحبوبة التي يخالها تناديه وقد اتخذها كعبة آماله

عند هذه الكلمة « كعبة الآمال » المرادفة لموضوعنا « غاية الحياة » يقف كل قلب ويزفر زفرة حارة إذ يتساءل : « وما غايتي من الحياة ؟ أأعرفها انا وهل تثمر هي أو تبالي بوجودي ؟ ما هي يا ترى ؟ أثروة ابتغي حشدها ؟ اجاه ، ام قدرة ، ام حال انعم فيها بجميع اسباب الهناء واتذوق خلالها لذائذ الفوز والسيطرة ؟ أهي علم لا افتأ أذهب في غوره ليكشف لعاقلتي حجب الحياة واسرارها ؟ أهي ارهاف ملكاتي الذهنية والنفسية ارهافاً يرفعني فوق اقراني ويجعلني موضوع اعجابهم ؟ أهي تقوى تدنيني من خالقي وتطمئن بها نفسي ؟ أهي شخص ايقظ فيّ حياة الوجدان العجيبة وتمثلت لي في ذاته صفات الالوهية المعبودة حتى صرت استهين لاجله بكل عزيز وأُجازف بكل مكنون ؟ واين انا

الآن من ضالتي المنشودة ؟ ماذا اكسبني جهادُ الاعوام الغابرات، والى اين اوصلني ذلك الجهاد الطويل ؟ ماذا جنيتُ من الكدّ والتجلد والرجاء ، وبعد دموع أرسلتها واخرى امسكتها ، وزفرات أطلقتها واخرى كتمتها . أراضٍ انا عن نفسي وعن غيري ، ام انا كلما خطوتُ خطوةً الى الامام تقهقرتُ الى الوراء خطوتين ؟ ام انا كنتُ اعلّلُ النفس بشيء فلما صار لي وجدتهُ شيئاً آخر ؟ ام ان ما كان يبدو لي حقيقة محسوسة انما هو خداع فتأن كلما جريتُ نحوه ملتمساً ودنوتُ منهُ مستعطفاً ارتدّ وتباعد كما يرتدّ ويتباعدُ السراب في الصحراء وعدتُ انا الى عذاب محتوم واصطبار جميل ؟ غايتي من الحياة السعادة ، فهل انا سعيد ؟ »

وهنا يقفُ كلُّ فترةً اخرى ويزفرُ زفرةً جديدة سعيداً كان ام شقياً ، لانهُ لا بدّ لكلّ قلب من فراغ لا يُملأ ومن حاجة لا تُسدّ . ولأن النفس البشرية تشبهُ بِركة الماء مهما راقت صفحتها وتلألأ سطحها حرّكها قليلاً تتعكر وتكشف عما ركد في اعماقها من الاوحال . وفي اعماق كل نفس آلام ثاوية ، وتذكارات جاثمة ، وجراح صديدة اندمل بعضها على فساد يكفي ان تلمسها يد او اشارة لتمضها الاوجاع فتعمد الى الاستغاثة والانين

***

انما السعادة غاية الجميع ، اما السبيل اليها فتختلف باختلاف الطبائع . حُرمها الناس طويلاً فازداد شوقهم ، واحتشدت في قلوبهم الكظوم والضغائن حتى لكأن الانسانية تتحرك اليوم فوق بركان ثائر . ففي كل مكان حروب وتقاتل على المنافع ، ومن الغريب ان النقيضين اي يقظة الوطنية وانتشار الاشتراكية يسيران جنباً الى جنب ، والامم جميعاً على وجلٍ واضطراب تنتظرُ من وقت الى آخر تغير الاحوال ووقوع ما كان يُرجى او ما لم يكن ليرجى

بيد ان الحياة العامة لا تأخذ من حياة الفرد سوى ساعات معدودات، وفي اشدّ حالاته تحمساً تظلّ حياتهُ الداخلية على ما هي تقريباً . يظلّ لهُ عوزهُ الذي لا يملأهُ الغنى العام ، تظل لهُ آلامهُ الجسمية والروحية يتجرّع مرارتها ويحتملُ من وخزها ما لا يخدّرهُ التهليل العام . ترى ما هو تأثير تلك الافراح الوطنية الجميلة في العليل اليائس ، وفي المعدم الذي ليس لديهِ ما يسدّ رمق صغاره ، وفي

القلب الذي حوى جمرة تأكل سويداءه ، وفي الصدر الذي اكتظت فيه الهموم اكتظاظ الامة الناهضة لاستقبال نتاها المجيد ؟ تلك لمحات ابتهاج تسطع ثم تترك القلب اكثر وحدة وسواداً ، والعليل اكثر اسفاً على ايامه المتتابعة كالاظلال

السعادة هي الغاية ، وما السعادة في حقيقتها وعلى تنوع صورها في الاذهان ، سوى تطور متتابع نحو حالة تسترفي عندها جميع القوى وسائل النمو والانبساط والظهور كاملة وافية باقل ما يمكن من المقاومة والالم ، هذا اذا تعذر الخلاص منهما على الاطلاق . وهل من تطور ونمو بلا عمل ؟ لا جمود في الخليقة حيث كل مخلوق ، حتى ولو اختفق وراء مظاهر الموت ، يؤدي وظيفته ويتمم ما وجد لتتميمه . وكذلك كل خلية من خلايا الجسم تعمل لتؤدي وظيفتها . غير ان ذلك العمل الآلي ليس ليغني الفرد المفكر المريد الذي لا تكفيه الغاية العامة في الكون انما هو يعمل عملاً خاصاً اضافياً يتفق مع غايته المختارة تتمرن عليه مجهوداته ويمارس به قواه . تلك السعادة التي يحلم بها لا بد ان يسعى اليها سعياً خصوصياً حثيثاً أريباً في تحنيه وتشعبه وتنوعه . ومع ذلك ليست كل قيمة العمل في انه موصل الى الغاية المقصودة ولكن قيمته المعنوية الكبرى في كونه آلة الاستقلال الفردي وخالق الاحتياج الى الاعتماد على النفس

وما هو الاعتماد على النفس ان لم يكن مكيف الذاتية الحرة التي تدرك اهمية احتياج الآخرين اليها ، تدرك كونها مخلوقة على صورة الله ومثاله لان الله ، وهو المبدع الاعظم ، خلق الانسان واودعه قوى الادراك والاختيار والابتكار التي لا تظهر الا في العمل . فبهذا العمل الذي يخلقه الانسان ويتقنه يصبح الها صغيراً . بالعمل يكبر في عيني نفسه وتنسجم حوله هالة الكرامة المفرزة عناصرها من داخله المتشبع ثقة بكفاءته واقدامه . بالعمل يرفع رأسه الذي احناه الطلب والاستنجاد وينظر الى الناس كاشباه لا هم فوقه ولا هم تحته بل هم اخوان يعملون في سبلهم المختلفة . وينظر الى الحياة متفرساً في ملامحها بلا وجل لانه تعلم في مدرسة الاعتماد على النفس ان المصائب والمحن والمماكسات الداخلية والخارجية تعجز عن النيل من قوته الجوهرية ، وان تلك المزايا انما هي عناصر اختبار ، له ان يستخرج منها دروساً قيمة ومعلومات جديدة تزيده قوة ونبلاً

ليس النبيل من ورث نسباً ومالاً فاستخف بالناس والاشياء اتكالاً على

وراثته ، بل النبيلُ من خلق نفسهُ ، وما زال بها كل يوم يجدّدها بعملهِ ليخلف للمستقبل ثمرة مجهوداتهِ. النبيل من لا ينتظر « الظروف » و « الحظ » و « البخت » تلك الكلمات التي يتملحُ بها الذليل الخامل ، بل ينتهز الفرص ليجعلها صفحات جليلة في كتاب عمرهِ . وما الايام والساعات سوى فرص ثمينة للنابه يستخرج منها العجائب

***

هنا اودُّ ان احصر الموضوع في المرأة لان الموضوعات النسائية تستوقفنا بوجه خاص لنبحث فيها عن نقائصنا ونعرف مواطن ضعفنا فنحاول الاصلاح ما استطعنا اليهِ سبيلاً

أما فيما يتعلق بضعف المرأة فأصارحكن القول بارتيابي منهُ في المعنى الذي يقصدون . أرسل البحث في شؤون العمران فاجد تأثير المرأة وراء كل عمل مسبباً من الحوادث مالا تفسيرهُ بغير كلمة نابوليون « فتش عن المرأة » . واقلبُ صفحات التاريخ فأراها في تعاقب العصور ملكة ضالعة ، وسياسية دقيقة ، ومفكرة كاتبة عالمة مصلحة لا يستهان بها وذات بسالة كسالة أعاظم الابطال. ذلك على رغم الجور والاستبداد . فلو أبدلناها بالرجل وعاملناهُ بمثل ما عاملها فحرمناه النور والحرية دهوراً فاي صورة هزلية يا ترى يبقى لنا من ذيّاك التمديد المنوار؟

على المرأة ان تكون جميلة أنيقة دمثة لينة متعلمة قوية الجسم والنفس ماضية العزيمة . عليها ان تصون ذاتيتها الفردية بينما هي تصطبغ بصبغة محيطها وتراعي ميولهُ لتحفظ توازن السرور والانشراح في البيت الذي يحبها وتحيهُ . عليها ان تأتي بالاولاد وتتعهدهم جسماً وعقلاً وروحاً . عليها ان تكون عارفة باساليب الاقتصاد والتدبير . عليها ان تحافظ على وفاق الاسرة وسلامها وان تنشىء علاقات تآلف بين اسرتها وأسر الاصحاب والمعارف وغيرهم ممن تدنيها منهم المصلحة أو اي شأن من الشؤون . فكأنها بذلك وزيرة داخلية ووزيرة خارجية ووزيرة معارف ووزيرة مواصلات ووزيرة مستعمرات الخ . هذه الاعمال التي توزع على نخبة من افضل رجال الامة واقواهم تُلقى جميعاً على عاتق امرأة واحدة تقوم باتقانها على قدر المستطاع ، ثم يعودون فيقولون انها « ضعيفة »

صدّقوا ، هي ضعيفة ولكن ازاء نفسها الفائضة بالعواطف الرجراجة الصاخبة المستمرة ، ضعيفة بأعصابها الدقيقة السريعة التأثر وباستعدادها لتشرّب الالم واستيعابه الى درجة لا يتصوّرها من لم يكن امرأة . وانما هو هذا الضعف الذي يجعلها أحياناً اكثر عدواً من الرجل إذ تتناوبها هبّات ووثبات تندفع بها كمن يريد التكفير عن قعود مضى أو كمن يخشى عجزاً آتياً ، في حين ان الرجل يظل منتظم السير واسع الخطى كأنهُ واثق من توفر القدرة والنشاط لديهِ على الدوام. وان التمست غاية استعملت للحصول عليها فناً وحذقاً ليس هو حذق الرجل ولا هو فنهُ . وكل ذلك ناتجٌ عن تراكم آلامها الوراثية وعن توحد الغاية في الاجيال النسائية الخالية التي لم تكن تبغي غير الحبّ والزواج والعائلة . فان كانت هذه غايتها اليوم انطلقت اليها بقوة ساقت ملايين ملايين النساء منذ ان وجد النوع البشري ، لا تبالي أصادفت وعراً أم اصطدمت بصخر . وإن تفاوتت الغاية سيقت بذات القوة يركبها التوقُ الى المجهول ولذة الاختلاف والرغبة في النجاح . فتتفوّقُ في عملها ، إن شرّاً فهي السفاحة ماري تيودور أو هي ريّا وسكينة بطلتا فظائع الاسكندرية . وان رأفةً فهي الامُّ المفاديةُ والشفيقة العاكفة على فراش المريض تصدُّ عنهُ الموت وتجلب اليهِ العافية . وان حماسةً وفخاراً فهي جان دارك ومدموازل بوستانوبتوف البولونية ، او هي المرأة المصرية تجوب الاحياء مزمجرةً هواء بلادها بالاعلام الخافقات ، تهتفُ بما يستفزّ الدموع ويستنهض الهمم ويُفهم الرجال شباناً وشيوخاً قيمة الاوطان وعزّ الاوطان وحرمة الاوطان

ليست الصعوبة في المجاهدة لنيل غاية عزيزة وانما الصعوبة الموجعة على الرجل والمرأة معاً في عدم وجود الغاية . اوجع شيء للمرأة ان تكون مبهمة المطالب والمستقبل امامها صفحة خاوية خالية ليس فيها بارقة امل ولا كلمة عزاء . كثيرات هنَّ التعسات اللاتي وقعن في مخالب ذلك الشلل المعنوي مولّد المجازفة والانحطاط الذي يدعى السآمة . فيجرين هنا وهناك هرباً منهُ مخاطرات بما وجب صونهُ ناسيات ما عليهنَّ ان يذكرنهُ . ومنهنَّ من لا تطيق البقاء يوماً واحداً بلا زيارات واستقبالات واحاديث جارات وخالات وعمات ، كأنها تخاف الاختلاء ومقابلة نفسها وجهاً لوجه فتفتقدُ بذلك اعظم تعزية واعظم امثولة في الحياة . وان

احسنت القراءة دفنت سآمتها في الروايات دون ان تفقه ما فيها من مغزًى اجتماعي او اخلاقيّ، مكتفية بتتبع الصلة الغرامية والاستسلام الى ما يبديهِ أبطالُ الرواية من انفعال اصطناعيّ مضخّم، جاهلة انها بتطلّب ذلك التحريض القهريّ تطفىءُ نور ذهنها وتضعف من نفسها جميع القوى حتى قوة الحبّ الذي ينتقم من مهينيهِ ومزيفيهِ انتقاماً صارماً

ما اعظم الحبّ واشرفهُ، ايتها السيدات، في القلب المتبصر الحكيم! هو اقدرُ عامل ينهض بالانسانية مسهلاً طريقها، مخففاً اثقالها، خالقاً من ابنائها الابطال والجبابرة. واجل الارواح واكبر القلوب وانبل النفوس انما هي تلك التي يظلّ فيها نهرُ الحبّ دائم الفيضان وتظلّ تبعث شعاع شمسها الداخلية الى ما وراء الفرد والبيت والوطن فتمتدُّ على كل شيء وتضيء كل شيء. الذي يحبُّ كثيراً يفهم كثيراً. لان الحبَّ إستاذ ساحر نتعلم منهُ بسرعة وينفتح لنا رحب الآفاق يهمس فيها صوتهُ الحي الذي لا تسكتهُ اصوات الافراح والاحزان

ولكن كم نصغرهُ ونحقرهُ عندما نحصرهُ في الموضوع الواحد الذي تدور حولهُ الروايات والاشعار الغزلية وننسى انهُ الرابطة الكبرى، كدتُ اقول الرابطة الوحيدة، بين اجزاء الكون وبين الانسان والموجودات، وانهُ هو وحدهُ دواء السآمة الناجع وبلسم التعزية الفعّال

***

وكيف نتناول ذلك الدواء ونتغذّى بذلك القوت الالهي؟ السبيل واحد لا ثاني لهُ، وهو العمل. العمل الذي ينير العقل، ويفتح القلب، ويملأ الوقت، ويحبو الحياة طعماً لذيذاً، ويروّح النفس الواجمة، ويرضي الطباع الساخطة، ويصرّف العواطف المتلازبة في منافذ ومخارج حسنة العائدة على المرأة الواحدة وعلى من يلوذ بها. فلتعمل المرأة ايّ عمل ينتظر يداً تقوم بهِ وكل عمل تشعر من نفسها بميل جديّ اليهِ. وسواء كانت مشتغلة لتعيش او لتلهو، لا فرق بين نوع العمل من علم وفن وخياطة وتطريز وتدبير منزل او بيع في المخازن، فالامر الجوهري هو الاجتهاد ووضع قلبها وفكرها في ما تعملهُ لتتقنهُ وتكبر بهِ مهما كان صغيراً حقيراً. ولكن لفظة الحقارة لا تصلح لمعنى العمل لان

كلّ عمل شريف في ذاته ، وليس منظف الشوارع بين الغبار والاقذار باقل اهمية من الرجل العظيم في قصره بين التهليل والاكبار ، ولا هو اقلّ نفعاً لامته وللانسانية

إذا أحبّت المرأة ذاتها حباً رشيداً كانت لنفسها اباً وامًّا واختاً وصديقة ومرشدة وأتمت ملكاتها بالعمل وضمنت استقلالها بكفالة عيشتها . لان الاهل الذين تتكلُ عليهم قد يموتون ، وللاخوة والاخوات عائلاتهم وسبلهم في الحياة ، والاصدقاء يتغيرون وينسون ، والثروة الطائلة قد تنقلب هباء ، اما هي فلا تخون ذاتها ولا تنسى ذاتها ولا تفقد ذاتها . والثروة كل الثروة في الاباء والاستقلال الفرديّ وتعاطي عمل ما بجدٍ واهتمام وبراعة . والاعجوبة ان هذا العمل الذي نباشره هرباً من الملل ، ورغبةً في قتل الوقت ، لا يلبث ان يصبح ذا شأن كبير ويمين لنا غايةً عظيمة مشيراً الى وسيلة الحصول عليها . بل لا اعجوبة في ذلك ما دام العمل الكبير انما هو مجموع تفاصيل صغيرة دقيقة . أليس ان الجوامع الاثرية البديعة ، والمآذن الهيفاء الباذخة انما برزت وثبتت بتناسق الحجر قرب الحجر ؟ أو ليس ان العَلَم الذي تتفيأُ بظله امالي الامة ورغباتها انما نُسج من خيوط واهية يكاد يكون كل منها بلا اهمية في ذاته

كذلك فلتكن مجموعة اعمالنا غايةً جليلة تقوم بها عاليات الجباه تحت اكاليل العزم والجهاد ، وقد اختفت من عيوننا خيالات الخضوع والمسكنة ، وحلّت محلها نظرةُ من هي لم تعد عبدة المجتمع ، ولا عبدة الحاجة ، ولا عبدة الرجل ، ولا عبدة قلبها وهو اعظم جائر مستبد . بل نظرة من اصبحت سيدة نفسها تطيع مختارةً ، وتعمل مختارة بهدوء من فاز او قدّر لهُ ان يفوز في الحياة . فتكتشف عند كل خطوة جمالاً جديداً وتفرح كل يوم كأنها خُلقت خلقاً جديداً

***

بقي عليّ ان اشكر لجمعية « فتاة مصر الفتاة » دعوتها الكريمة التي مكنتني من الاجتماع بكنّ ايتها السيدات ، وأجازت لي التعبير عن افكاركنّ . في الظاهر كنتُ انا المتكلمة . ولكنكنّ تعلمن انّ ما يفوهُ بهِ الفردُ فنحسبهُ نتاج قريحتهِ وابن سوانحهِ انما هو في الحقيقة خلاصة شعور الجماعة تتجمهر في نفسهِ ويرغم على

الافصاح عنها. واني لاغتبط بهذه الحادثة الصغيرة ، واهنيء مصر ببناتها العاملات المدركات معاني الحياة ، وكلكنَّ هنا ذوات اثر في بيئتكنَّ وصاحبات فضل على قومكنَّ. اننا نجتاز اياماً عظيمة تهزُّ النفوس الى اعماقها وتلقيها الى ما لديها من المواهب والممكنات. ألا فلنكن اهلاً لهذه الايام بدروس نكتسبها من مرورها! ولنكثر من التمني لان ما نتمناهُ واقعٌ لا محالة ، وانا من المعتقدين ان مجرَّد الشوق الى امر والرغبة فيهِ انما هما انذار بوقوعهِ المحتم

والآن اعلمُ انكنَّ تنقمن عليَّ جميعاً ان لم اضف كلمة اخرى هي بلا ريب حائمة في قلوبكن

ان المنادين بحقوق النساء في فرنسا قد سمّوا انفسهم احفاد «كوندرسيه» الفيلسوف الفرنساوي الذي دعا الى المساواة بين الجنسين . وقد اتخذوا ذكرى وفاته في ٢٩ مارس من كل عام عيداً يحتفلون فيهِ بتحرير المرأة. وفي هذا الاسبوع الاخير من شهر ابريل ذكرى وفاة زعيم النهضة النسائية في هذه الديار واحد مؤسسي الجامعة المصرية التي تجمعنا الساعة جدرانها : قاسم امين . فمن واجب العرفان بالجميل ان نحيّ تلك الروح التي احتضنت في رحابها روح المرأة الحائرة . وان نستحضر ذلك النظر الذي نفذ الى قلب المرأة فاحبها في ضعفها وفي ضلالها ، وفي تعطّرها ، وفي حقوقها المهضومة وفي مواهبها المنسية . وان نلمس تلك اليد الروحية التي خطت يوماً صفحات الدفاع عن المرأة ودلتها على طريق العمل القويم والاستقلال النفسي الذي هو دعامة كلّ استقلال صحيح دائم

صاح قاسمٌ في القوم يهديهم ولكنهُ لم يفتهُ ان تحرير المرأة في يدها اكثر منهُ في يد الرجل وان العمل الزم الاشياء لها . واعظم ما يكرمُ بهِ الحيُّ راحلاً عزيزاً هو الاهتداء برأيهِ والتمشي مع ما حسُنَ من مبادئهِ . ولقد تفذّت فتاة مصر كل هذه الاعوام بروح قاسم فبرزت نبيلة ذات عزم واقدام كما كان يصوّرها لهُ المستقبل . لذلك كانت اجمل زهرة نضعها اليوم على ضريحهِ هي زهرة الشكران . وكانت اصدقُ تحية نوجهها اليهِ هي هذه التحية المزدوجة :

فليحيَ زعيم النهضة النسائية !

ولتحيَ المرأة المصرية ناهضة عاملة !

(مي)